الأدب واللغة

من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدي

— ٢ —

كان هذا شعور العربي باللغة ومفرداتها بل بالأدب أيضاً . ومن أجل هذا نرى أن اللغة قد نشأت بطريقة وجدانية . ومن أجل هذا أيضاً اختلفت ألوان البلاغات في القديم والحديث . وظل كذلك هذا الشعور في العصر الجاهلي إلى زمن كبير من صدر الإسلام حتى أصبحت اللغة لغة حياة جديدة ففقدت كثيراً من مدلولاتها على الزمن من جهة ، ومن جهة أخرى زحزح الاستعمال في شؤون الحياة الجديدة كثيراً من مفرداتها عما كانت عليه في العصر الأول . وبذلك خسرت تلك الشحنة العاطفية التي أشرنا إليها من قبل . ولكنها ربحت غير قليل من الصقل والمرونة والمواتاة

كان إذن عصر بني أمية عصر شباب اللغة كما كان عصر شباب للأدب ، فالفطرة فيه قوية لم يبعد بها الزمن من عهود البلاغة المطبوعة . والسلائق غنائية بسيطة لم تتركب بعد بساطة الحياة التي كانت تمارس في ذلك الزمان . هذا والأخلاق بوجه عام لم تتميع بعد بتأثير الحضارة ، وما تتيحه للناس من خفض ولين ووثارة . وإنما كانت الأخلاق تمتاز بشيء من القوة والصرامة وقلة الفضول . والأثر الأدبي تبعاً لذلك يبدو مطبوعاً قد خلا من كل تكلف وتعمل، وإن احتمل فيه قائله ضروباً من العنت والمشقة والعناء . وسيظل ذلك العصر كما كان منهلاً ينهل منه أبناء العربية صوراً من الكلام البليغ في كل زمان ومكان ، ما نطق بالعربية لسان .

ولكنه لم يكد يدنو من أواخره حتى بدت في الأدب طلائع البديع كما تتبين ذلك من بعض عبارات للجاحظ (١) في البيان والتبيين . وقد كان من الطبيعي أن تتطور طرق البيان بعد أن لانت العرائك وأصبح تلمس الجمال المصنوع من مطالب الحياة .

وثمة شيء آخر ، وهو أن الحياة العقلية لذلك العهد وإن

---

(١) مؤرخو الأدب على أن أول من اصطنع البـديع كمن قاله هو مسلم بن الوليد . ولكن الجاحظ يقول في البيان والتبيين ج ١ ص ٣٠ (ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي . وكنيته أبو عمرو . وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري . ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما . وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع . ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة »

هذا ما يقوله الجاحظ . ومعروف أن بشاراً أسبق في الزمن من مسلم بن الوليد . ومعروف أيضاً أن كثيراً من الآثار الأدبية لذلك العهد ضاع مع الزمن . ومؤرخو الأدب أصدروا حكمهم هذا بالنظر إلى ما بين أيديهم من آثار . ومن هنا كان الجاحظ أصدق حكماً لأنه أصدره وآثار الشعراء كانت إذ ذاك متداولة لم يضع منها شيء . فليتدبر هذا النص

ولك المجلس الرفيع جلاه أبلج الرأي مكرم الوزراء

بايع الجيش منك إسكندر الأكـبر في البأس والنهى والفتاء

ضاحك السن لابتسام المواضي مائل العطف لاهتزاز اللواء

إن خيلاً حملن «سوزستريس» الـ ـمصر أولى الجياد بالخيلاء

ضاقت الأرض عن جلالك في السلـ ـم فماذا تركت للهيجاء

حبذا الجند أنهم يا ابن «إبرا هيم» أبناء صحبة الأقوياء

قمت فيهم قيام جديك من قبـ ـلك في يومي الندى والفداء

وعلى الآل من علاك جلال وكذا الرأس زينة الأعضاء

وحواليك «كامل» الفضل والصنـ ـو «على» متوجاً بالبهاء

دام يرقى في ظل ملكك بدراً في ذرى السعد ساطع اللألاء

وتهنأ بالنعمتين وفاخر بسماء أعظم بها من سماء

وطني قبلتي وأنت إمامي بك فيها لوجه ربي اقتدائي

راعني وارعني وكن لي أسمى لك حبي وخدمتي وولائي

ولساني فإنه لك إرثاً عن أبيك اشتراه بالآلاء

أنت مصر ومصر أنت فدوما أبداً في رفاهـة ورفاء

جبلة سوريا — محمد عرنان صبيح

١٤ ٠ ٣٩

بلبلت الخواطر والأذهان لم تكن قادرة على أن تنفخ من روحها فى موضوعية الشعر شيئا له خطر . وكل ما استطاعت أن توحى به هو فنية الصورة الشكلية أو فلسفتها دون الموضوع . ومن هنا جاء البديع وانتقل الأدب لذلك من طور إلى طور فى تدرج طبيعى ملحوظ

ثم يمضى فى هذا الطور حتى ينتهى إلى كهولته فى العصر العباسى الأول . وهو يستقبل عهده الجديد حاملا إليه ماحصل الشباب ، وفيضا غير كبير مما كان عليه من أريحية وحية وحماسة ، وإنه ليمضى فى عهده هذا مستوعبا لما حوله من مختلف ألوان العيش ، منتفعا بما يحيط به من الثقافات والمعارف . مستجيبا لما يحف به من حضارة وترف ونعيم . ومع هذا فقد هبطت درجة حرارته . وناله كثير من الفتور والإعياء . وأصبحت صور الأداء قوالب محفوظة تصلح لكل مايملأ منها الفراغ . وامحت فيه أوكادت تلك السلائق الغنائية المستجيبة المشبوبة . أو قل صارت رواسب عقلية فحسب . ولكن الغناء أصل من أصوله ولا معدى للشعر عنه بحال . فليستعض عنه بتلك الغنائية التى تجىء نتيجة لتلاؤم الجمل والعبارات والألفاظ . ولهذا فهو مجرد فن فقط ، يظفر به من بمانيه بشىء من الدربة والممارسة ، وبالبصر بمنازع الكلام . وهو فى عمومه ككل شىء تلده المدنية يروقك منه الصقل والتنسيق ولكنه قلما تنبض فيه روح ، وإن لم يخل من الألمعية والنفاذ أحيانا . ولقد استتبع خلوه من الروح خلوه من الموضوع ؛ وبالتالى فقد الوحدة التى تربط بين عناصر الأثر الفنى المحتفل به . وبذلك فهو معرض للحياة بكل ألوانها ما اختلف منها وما ائتلف . ولا ريب فى أنه احتفظ بأكثر مما ينبغى له من تقليد للقديم ، ومن ترسم له خطاه ولئن اتخذ مادته مما حوله من حياة ، فهو قد اتخذ أيضا أدوات التصوير لها ، والتعبير عنها من حياة البادية دون الحياة المعاصرة له ، تلك التى كان ينبغى له ألا يعدوها فى شىء سواء فى ذلك مادته أو وسائل الإفصاح عنها والأداء . وليس من العجب فى رأينا — وإن لم يكن من الحسن — أن يرجع إلى حياة البادية فيتخذها موضوعا ؛ أو يتخذ منها أداة للبيان . فهو كما قلنا ، وكما نريد أن نقول ، كائن حى . وأى عجب فى أن يرجع الكائن الحى إلى ذكرياته وفى وسعه الرجوع إليها . تلك التى قد تتيح له العزاء والسلوى .

أو تحقق له المثل الأعلى فيما هو منه يسيل . ثم هل انقطعت تلك الوشائج التى تربط بين حاضره وماضيه . من المحقق أنها لم تنقطع . بل هى أوثق وأقوى مما كان يجب أن يكون . وشىء آخر يجب أن نلفت إليه النظر فى هذا المقام . وهو : ماهى الصلة بين الأديب والأدب . وعندى أنها صلة الموصل الكهربائى بالتيار . أو هى صلة الشعلة بحاملها يتسلمها ثم يذكيها ويعدو بها ليدعها آخر الشوط إلى من يضع بها صنيعه وهكذا . ثم ماهو الأدب ؟ أليس الأدب فى حقيقته بعض دوافع الحيوية فى النفس . ولئن صح هذا فإن سلسلة حيوات الأدباء الذين تعاقبوا فى لغة ما تؤلف امتداداً لحياة الأدب على الزمان . ومن ثم فهو كائن حى . وهو كذلك فى تطور وتجدد . لأنه أثر من آثار تلك الحيوات التى لابست الزمان والمكان . وهذان لايستقران على حال . ولهذا فقد كان الأدب فى تطور وتجدد فى كهولته التى نتحدث عنها إلى جانب عناصر التقليد التى انحدرت إليه من ماضيه القديم ولا تزال حية فيه

كان هذا شأنه ، تجدد فى مسايرة الحياة المعاصرة له . وتحجر فى وسائل الأداء والتعبير . وكما تحجرت فيه صور الأداء ، كذلك تحجرت اللغة فى أنفس الناطقين أيضاً . وأصبحت مفرداتها لاتدل على المعنى اللغوى منها فحسب . وأندر ماكان فيها من شحنة وجدانية ، بل لقد سار النظر إلى العبارات وإلى فهمها فهما إجماليا . ونظن الفقرة الأخيرة هذه فى حاجة إلى توضيح . فلنضرب لها مثلا . قال بعض الشعراء من قصيدة يحيى مؤرخا جغرافيا

ياموكب العلم قف فى أرض منف به يناج مهداً ويذكر للصبا شانا

كان المستمع إلى هذا البيت لايعنيه منه إلا معناه على وجه الإجمال . وهو أن العلم نشأ أول مانشأ فى مصر القديمة . دون أن يلتفت إلى النداء إلى موكب العلم . ولا إلى الأمر بوقوفه فى أرض منفيس تلك المدينة المصرية القديمة . ولا إلى مناجاته لمهده الأول . ولا إلى ما كان له من ذكرى شأنه فى صباه ، وحسب القارئ أو المستمع المعنى المجمل الذى أشرنا إليه

الكلام بقية محمد عثمان الصمدى